عصر الدولة الوطاسية

(1471-1554)

أ- التاريخ السياسي (ج1)

1. الظرف السياسي العام:

كان هذا العصر عصر السيطرة والنفوذ للإمبراطورية العثمانية؛ فبعد فتح القسطنطينية (1453م) وقبيل ظهور الوطاسيين اتسع نفوذ العثمانيين على حساب الممالك المسيحية الأوربية؛ فأخضع السلطان محمد الثاني بعد حروب عنيفة بلاد المجر واليونان، وأرغم البنادقة على الخروج عن ألبانيا (1479م).

وتأكد النفوذ العثماني في أيام السلطان سليم، الفاتح للبلاد الإسلامية المضطربة في انقساماتها؛ فضم سورية (1516م)، وأحرز نصره الحاسم في معركة مرج دابق؛ وفتح مصر، وأخضع المماليك الجراكسة؛ وحمل معه المتوكل على الله آخر خلفاء العباسية الصوريين. ثم عطف على الدولة الصفوية واقتحم عاصمة سلطانها إسمعيل تبريز (1514م).

وخلفه في الفتوح والحروب سليمان القانوني مدوخ جيوش المجر، ومحاصر فيينا (1530م)، وقاهر بلاد فارس. وسعى العثمانيون في إنشاء الحضارة، والتفتوا إلى البحر؛ فشيدوا أسطولهم الشهير سيد البحر المتوسط في زمانه.

وواجه المغرب الإسلامي في هذه الفترة حملات شديدة، قادها الإمبراطور النمساوي شارلكان والإسبان ذوي الروح الصليبية المتحكمة، خاصة بعد سقوط غرناطة (1492م)، وضياع الحلم في استرجاعها؛ والذي كان منقلبا في تحول القوة السياسية والعسكرية إلى أوربا النصرانية، بعد قرون من السيطرة الإسلامية المغربية.

وتدخل العثمانيون، بعد أن صار المغربين الأوسط والأدنى عرضة لغارات وتوسع المملكة الإسبانية الناشئة، والتي كانت قد احتلت المرسى الكبير ثم مدينة وهران في بضع سنين (932هـ/1525م)، واحتلوا مدنا أخرى على الساحل المغربي. وظهر الأخوين التركيين عروج وخير الدين، ودافعا عن أراضي الإسلام بالمغرب، وبسطا سلطانهما على الساحل، وحاربا الإسبان، وغزوهم، بل واستطاع خير الدين باسم الباب العالي فتح إفريقية، وأنهى ملك الحفصيين الطويل (942هـ/1535م).

وكانت العلاقة العثمانية مع المغرب الأقصى جيدة في عمومها، وفي عهد عبد الحق بن أبي سعيد (857هـ/1453) وصلت سفارته للسلطان محمد الثاني الفاتح، تهنئة بالفتح، وإعلانا بالولاء، وقد تجلى ذلك في الدعوة للعثمانيين على منابر المغرب، وكتابة اسمهم على السكة.

لقد كان الظرف السياسي العام بعد ظهور العثمانيين قد تغير في أوربا؛ فقد بات خطرهم يدهمها، وكان البحر المتوسط خاضعا لهم؛ وهنا ظهرت المملكتان الاستعماريتان الأوليان في التاريخ الأوربي الحديث البرتغال وإسبانيا. واتجهت أطماعهما إلى خارج المتوسط؛ فأبحرت سفنها نحو الهند، ونزلت أمريكا؛ فاتسع نفوذها وثراءها، واتسع معه ظلمها لمن وجدته في طريقها من شعوب العالم.

وكان للكنيسة في هذه الأثناء دورها في حركة الاستعمار؛ فأثرت بها فضلا على ما كان عندها، وزاد نفوذها، ومعه فسادها؛ وبدأت تظهر حركات الإصلاح بها، إلى أن خرج **مارتن لوثر** الألماني (ت 1546م) داعيا لرفض طاعة البابا، والرجوع إلى شرائع الكتاب المقدس، في حركة إصلاح أدت إلى ظهور البروتستنت.

2ـ نشأة دولة بني وخاس:

تعود الأصول النسبية للوطاسيين فيما ذكره صاحب الذخيرة السنية إلى قبيل **صنهاجة** البربرية، وهم ولد وطاس بن المعز بن يوسف بن تاشفين أمير **المرابطين**. دخلوا في قبائل بني مرين لما غلبهم الموحدون على ملكهم؛ كان جدهم وطاس فر من تلمسان لاحقا ببلاد الزاب، فأجارته أحياء من بني مرين، ولما غلبت هذه على المغرب، كانوا في عدادهم ولهم فيهم رياسة، ونالوا وظائفا في دولتهم، ومنهم القاضي أبو الحسن الصغير، والوزير زيان بن عمر، والوزير أبو زكريا يحي.

وقد كان للوطاسيين حركات مع الخارجين على الدولة، فقد ساعدوا **بني غانية** في حربهم الموحدين، ولما نزلوا مع المرينيين المغرب أقطعهم سلطانهم يحي **ناحية الريف**، وكان حصن تازوطا معقلهم. وقد قاموا **بثورة** على المرينيين وطردوا عامل يوسف بن يعقوب (691هـ)؛ وفي العموم كان لهم ذكر من الحين للحين في أخبار بلاد المغرب الأوسط والأقصى، إلى أن بنو ملكهم.

أـ تأسيس الدولة الوخاسية:

ليس من الواضح تاريخيا نسبة **عصبية** دولة الوطاسيين، فهل كانت فرعا عن عصبية المرينيين، أم كانت محاولة لإحياء عصبية أجدادهم صنهاجة الملثمين؟ وإن رجح ابراهيم حركات الثاني دون دليل يذكر. وعلى كل حال قامت هذه العصبية الجديدة **لإنقاذ** البلاد المغربية من الفوضى العارمة اللاحقة بها؛ نتيجة غزو البرتغال والإسبان؛ وتهديد الأتراك بالمغرب الأوسط؛ وهجرة الأندلسيين، ومحاولاتهم تأسيس إمارات صغيرة في بعض المدن المغربية؛ وضعف ملوك المرينيين.

فكان لزاما على عصبيتهم القوية آنذاك أن ترث سلطان المغرب، من فرعها الأصلي، المتضعضع بنيانه؛ محاولة جمع القبائل المغربية ومدنها تحت **سلطان مركزي** موحد؛ وضبط الشأن الداخلي المرتكس بفتنه ونزعاته الاستقلالية؛ ثم مواجهة الخطر الخارجي الرابض في الشمال والشرق.

وكان نفوذ الوطاسيين قد برز في عهد آخر ملوك المرينيين **عبد الحق بن أبي سعيد** (823-869هـ/1420-1464م)، تولى الملك في الصبا، فحاول **ابن الأحمر** أن ينصب مكانه أميرا مواليا له، واستطاع **أبو زكريا يحي بن زيان الوطاسي** من تثبيت ملك عبد الحق؛ وصار وصيا على الملك؛ وكانت لهذا أعمال في حماية الدولة مذكورة؛ وخلفه بعد في رئاسة الوزارة **علي بن يوسف الوطاسي** (852هـ)، ثم خلفه **يحي بن يحي بن زيان الوطاسي** (863هـ)، فأساء التدبير وبطش به وأهله السلطان المستفيق في نكبة الوطاسيين، وأفلت أخوه **محمد الشيخ الوطاسي**، الفار إلى أصيلا والمتحصن بها، وتفرق الوطاسيون واستقلوا ببعض مدنها (طنجة، تازا)، وخلفهم في نفوذهم جماعة من يهود الأندلس (هارون، شاويل، حسين).

- **محمد الشيخ** (876-910هـ / 1471-1505م):

حاول محمد الشيخ الوطاسي- وكان يدعو لنفسه سرا- من أصيلا الزحف على فاس سنة 872هـ (1467م) بعد سقوط آخر المرينيين، وتولي **الشريف الجوطي محمد بن علي الإدريسي** إمارتها (869هـ/1464م)؛ فهزم أولا، ثم عاود غزوها، وانتهز البرتغال ذلك فاحتلوا معقله أصيلا (875هـ/1470م)، واضطر إلى مهادنتهم[1]، ثم دخل فاسا ظافرا بعد حصارها سنة 875هـ، وكان الشريف الجوطي قد خلعه أبو الحجاج الوطاسي قبل ذلك بمديدة، وفر الجوطي إلى تونس.

وسار هذا في إخضاع المنتزين والمتغلبين في النواحي، بعد أن استفحل الأمر في عصره، فأخضع أصحاب **شفشا**ن؛ وكان **بنو راشد** و**أبي الحسن المنظري** قد رفضوا الهدنة التي عقدها مع البرتغاليين وبقوا على حربهم. واستقلت **هنتاتة** بمراكش، و بعض بني مرين **بدبد**، وكانت **أنفا** بدورها مستقلة. وكانت ثورة عمرو بن سليمان **المغيطي** مشتعلة في الجنوب (870- 890هـ)، وكان أبو الحسن **المنظري** قد اختط تيطوان وبقي في حرب البرتغاليين بسبتة.

وواجه خطر البرتغاليين الذين كانوا احتلوا سبتة (818هـ/1415م) والقصر الصغير (1458م) وآنفا (873هـ/1468م)، التي هدموها وبنو على أنقاضها الدار البيضاء؛ وأصيلا (876هـ/1471م) وطنجة في نفس السنة، ومليلية (1496م)، واحتلوا موقع أكادير وبنو حصنا سنة 910هـ (1505م) وفشلوا لكنهم فشلوا في احتلال القصر الكبير(1503م)؛ لاستبسال مجاهدي سلا وتطوان في الدفاع عنه. وكانت الحركة البرتغالية تلقى دعما كبيرا من البابا **نيكولاس الخامس**، فقد اتخذ قرارا (08

[1] - وقع الهدنة أخوه محمد الحلو والملك ألفونسو الخامس في ربيع الأول 876هـ(أوت 1471م).

يناير 1454) خول فيه للبرتغال حق التمسك بسبتة ونواحيها، والاستيلاء على الساحل الأطلسي من رأس نون إلى غينيا.

وفي سنة 910هـ (1505م) قتل محمد الشيخ بالسم ومعه أربعون رجلا من رجاله.

- **محمد بن محمد الشيخ أبو عبد الله البرتغالي** (910-932هـ/1505-1524م):

خلف أباه، وتصدى لحرب البرتغاليين الذين احتلوا في زمنه مراكز مغربية أخرى منها: آسفي (1507م)، أزمور (1513م)، ساحل ابريجة وتيط (1502م)، المعمورة أو المهدية (1515م). وقد حاول استرجاع بعض ما فقده، وخابت مساعيه في استرجاع أصيلا، ونجح في استرجاع المهدية (1520م). وفي زمنه ظهر **السعديون**، كانوا بالسوس مشتغلين بحرب البرتغاليين مع أهلها، قادوها باسم الجهاد؛ فلما آنسوا قوة استعانوا بأمراء هنتاتة واحتلوا مراكش (930هـ/1522م)، فحاصرهم أبو عبد الله؛ ثم فك حصارهم لثورة أهل فاس عليه ومبايعتهم أحد إخوته، ولم يلبث أن توفي.

- **أبو العباس أحمد بن محمد** (932-956هـ/1524-1548م):

خلع عمه **أبو الحسن علي بن محمد** الذي لم يملك إلا بضعة أشهر (932هـ)، وكان قد واجه خطر الأشراف السعديين الذي بدأ ينتشر؛ فاضطر إلى مهادنة البرتغاليين، الذين توسعوا ببلاد الهبط بنواحي أصيلا. وحاول فتح مراكش، والتقى **بأبي العباس الأعرج السعدي** بمعركة **آنماي** (935هـ)، وكرر الأمر بعدها دون جدوى.

واستفحل أمر البرتغاليين، وضجت الناس من حال الصراع بين الوطاسيين والسعديين، وسعى في الصلح بينهما بعض المشايخ؛ فتم **الاتفاق** بينهما (940هـ/1533م) على أن يكون مابين تادلا والمغرب الأوسط للوطاسيين، وما بين تادلا والسوس للسعديين. لكن السعديين لم يلتزموا بالاتفاق، وفي سنة 942هـ (1535م) ساروا لدخول فاس، والتقوا بأبي العباس الوطاسي عند تادلا، فهزموه في وقعة **أبي عقبة**، واستولوا على قصبة تادلا (943هـ/1536م). ثم هزموهم ثانية في وقعة **ادي درعة** بتادلا (952هـ/1545م)، وأسر قائدهم أبو زكريا يحي ولد السلطان الوطاسي. وتواصلت سقوط المدن الوطاسية في يد السعديين كمكناسة (بعد 955هـ)، إلى أن حاصروا **فاسا** مدة سنة، واستولوا عليها سنة 956هـ(1549م)، بعد قتل الفقيه **الونشريسي** أحد كبار مستشاري السلطان، واعتقل محمد المهدي السعدي الوطاسيين، وعلى رأسهم سلطانهم أبو العباس، ورُحلوا إلى مراكش. إلا أنه نجى منهم أبو حسون الوطاسي اللاجئ عند الأتراك بالجزائر.

- **أبو الحسن علي بن محمد الشيخ أبو حسون البادسي** (961هـ/1553م):

حاول أبو حسون هذا الاستنجاد بملك الإسبان والبرتغال دون جدوى، وقد عرض على بعضهم التنازل عن مملكته بادس مقابل العون؛ فتوجه إلى الأتراك الذين سارعوا لمعاونته بعد وعوده لهم

بالمال والغنائم، وإن كانوا تواقين لبسط نفوذهم على المغرب أكثر من ذلك؛ فساروا معه بقيادة صالح التركي سنة 961هـ، ودخلوا فاسا بعد هزيمة السعديين في معارك شديدة، ثم رجع الجيش التركي بعد أن أفسد في المدينة؛ فكر السعديون في نهاية السنة على فاس واسترجعوها، بعدما قتلوا أبا حسون في **قعة مسلمة** بنواحيها.

يتبع ...